و للروح ارتواء



## تفريغ محاضرة

# وقربناه نجيًا

رواء الاثنين | د.هند القحطاني

١٤٤٣/٤/٣ هـ

حديث مناجاة {وقربناه نجيًا}

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد ألّا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا رسول الله.

أما بعد،

في كثير من الدروس التي نأخذها ونتدارسها في هذه الاثنينية نتحدث فيها عن مجموعة من الأعمال الصالحات، ومن مداخل الإيمان التي تقرّب بين العبد وبين ربه.

ومن خلال كل هذه الدروس كنا نحاول أن نجد خطوات لو أن الإنسان اتبعها وسار عليها سيكون الطريق ممهدًا له لعبوديته مع ربه.

إلا أننا نتفاجأ أحيانًا أن الطريق ليس بهذه السهولة، ونتفاجأ أيضًا أن القرب من الله ليس سهلًا كما نتخيله، ثم يرضى بعضنا أن يكون بعيدًا ومكانته بعيدة عن الله عز وجل.

فالسؤال هنا لو سألنا الناس بأجمعهم: مَن مِن الناس لا يحب أن يكون قريبًا من الله؟

و لو سألنا هذا السؤال بشكل عام لمجموعة من الناس، وقلنا لهم من الذي تتوجه له بحبك وقلبك وقرارات حياتك؟

نظريًا الأغلب سيقول إننا نحب الله وأنّ لا شيء يسامي حب الله في هذه المرتبة أبدًا.

فحبنا لله عز وجل هو الأول وهو المقدم، ثم يأتي بعده حب النبي عليه الصلاة والسلام ثم يأتي من بعده سائر الحب.

نظريًا هذا الكلام هو الموجود وهو الذي نؤمن به، أن حب الله في قلوبنا لا يزاحمه أي حب آخر، لكن في الحقيقة حين نأتي في الأعمال التي نعملها نجد أننا بعيدون تمامًا عن الله عز وجل، وهذا البعد ليس بعدًا فقط في المسافات، لكنه يشمل أن هناك وحشة بين الإنسان وبين الله، فيعيش في الحياة كأنه وحيد، مقطوع الروابط بينه وبين الله، فلا يلجأ ولا يفزع إلى الله؛ لأن هذه الرابطة ليست موجودة بينه وبين ربه أساسًا.

هو يعيش جدول يومه كاملًا من صبحه إلى ليله ليس هناك ما يقتطعه لله عز وجل، حتى لو كان فيه صلاة فصلاته باردة بلا خشوع، بلا استشعار أنها موعد مع الله عز وجل، باردة قد صار يعتبرها من العادات.

فأن تعيش متوحشًا عن الله عز وجل، بمعنى أنه ليس بينك وبين الله رابط، هذا من أصعب أشكال العيش.

ولذلك عندما كنا ذكرنا في رمضان هذا الحديث ونتواصى به في كل مرة نتدارس فيها، والذي يقول فيه النبي عليه الصلاة والسلام: "أَتَانِي جِبْرِيلُ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ مَنْ أَدْرَكَ رَمَضَانَ فَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ قُلْتُ آمِينَ، قَالَ: وَمَنْ أَدْرَكَ

وَالِدَيْهِ أَوْ أَحَدَهُمَا فَدَخَلَ النَّارَ فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ قُلْتُ آمِينَ، فقَالَ: وَمَنْ ذُكِرْتَ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ قُلْ آمِينَ فَقُلْتُ آمين"[أخرجه ابن حبان في صحيحه، وقال الألباني: صحيح لغيره]

(أبعده الله) هذه الدعوة ليس المقصود أن له من العذاب كذا أو كذا أو أنه عذاب من الحَيّات ومن العقارب، لا إنما دعوة النبي عليه الصلاة والسلام للذي يخسر رمضان (فأبعده الله) فتخيلوا حينما يكون البعد بينك وبين الله عز وجل دعوة دعاها النبي عليه الصلاة والسلام كعقوبة لذلك الإنسان الذي لم يستغل رمضان بكل المحفزات الموجودة فيه، بكل أبواب الجنة التي فتّحت، بكل أعمال الخير والملائكة التي تنزل ومع ذلك لم يستطع هذا الإنسان أن يستمطر رحمة ربه أو أن يحصل على غفران الله عز وجل له، هذا الإنسان الذي لم يستطع دعا عليه النبي عليه الصلاة والسلام (فأبعده الله).

وفي الحديث يقول النبي عليه الصلاة والسلام: "...، فقَالَ: وَمَنْ ذُكِرْتَ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ قُلْ آمِينَ فَقُلْتُ آمين"[أخرجه ابن حبان في صحيحه، وقال الألباني: صحيح لغيره] لاحظوا مرة أخرى صار البعد عقوبة.

أن تكون بعيدًا عن الله، وأن ترضى بحياة البعد هذه، هذا نوع من العقوبة التي تضرب على أولئك الذين تحجرت قلوبهم.

فكلما كنت أقرب إلى الله كلما كنت أشد إيمانًا، وكلما علا مستوى الإيمان عندك فحبالك مربوطة مع الله عز وجل وستشعر أن لك سندًا وركنًا تستند إليه.

أيضًا عندما قال النبي عليه الصلاة والسلام " وَمَنْ أَدْرَكَ وَالِدَيْهِ أَوْ أَحَدَهُمَا فَدَخَلَ النَّارَ فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ قُلْتُ آمِينَ، ..."[أخرجه ابن حبان في صحيحه، وقال الألباني: صحيح لغيره]

يعني أي إنسان منا يدرك والديه عند الكبر، ليس فقط عند الصغر؛ لأنك عند الصغر أنت محتاج لهما، في مصروفك، وفي توجيهك، وتعليمك الصواب من الخطأ، محتاج لأن يكونا موجودين في حياتك ينقذونك من الأخطاء التي قد تمر فيها، أو من مشكلة ما، فطالما أنت صغير فأنت تحتاج إلى والديك،

فالقضية ليست هُنا أن تبرهم وأنت محتاج إليهم، لكن القضية في الذي يبرّ والديه عند الكبر، عندما ضعف جناحهم وقويَ جناحك أنت، وصرت لا تحتاجهم، الآن هم قد ينتظرون منك مصروف، وينتظرون منك الهدية، ويضعون فنجان القهوة وينتظرونك متى تأتي. قد كنت أنت من تبحث عنهم وتلاحقهم لأنك محتاج لهم، وعند الكبر انعكس الأمر صرت أنت المشغول بين أسرتك ودوامك ومسؤولياتك و جدولك المزدحم، ولم يعد لأمك أو أبيك مكان بين انشغالاتك!

يقول النبي عليه الصلاة والسلام «رَغِمَ أَنْفُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ»، قِيلَ: مَنْ؟ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «مَنْ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ عِنْدَ الْكِبَرِ، أَحَدَهُمَا أَوْ كِلَيْهِمَا فَلَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ» [أخرجه مسلم، صحيح] كان برك لهما في أثناء كبرهما فرصة ذهبية فلم تستغلها لتكون سببًا لدخولك الجنة، فيقول النبي عليه الصلاة والسلام: [فأبعده الله] ولاحظوا العقوبات في هذه الأحاديث الثلاثة هي (البعد) فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول: [ فأبعده الله ].

إذن البعد عن الله عز وجل هو الشيء الذي نهرب منه، وهو الذي لا نطيقه أصلًا.

وتذكرون في الدرس الماضي عندما تحدثنا عن عقوبة إبليس أنه لعن واللعن هو الطرد من رحمة الله، فعندما ذكر الله عز وجل في كتابه:{ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا} [النساء١١٨] هذه اللعنة تعني الطرد من رحمة الله، **هل تعرف ما معنى الطرد من رحمة الله؟** هو أن الشيء الذي ندعو به في صلاتنا (يا رب ارحمنا، يا رب اغفر لنا، يا رب اعف عنا ) لا يكون لك.. أن تكون مطرود من رحمة الله عز وجل أي أنك لا تكون في دائرة رحمة الله ولا يسمع لك ولا ينظر إليك، فتخيلوا أنه خارج دائرة رحمة الله، مع أن رحمة الله وسعت كل شيء، في الآية يقول تعالى:{ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ} الأعراف، ١٥٦

فسيكتب الله رحمته للذين يتقون، للذين يؤمنون... إلخ، هذه الدائرة الواسعة التي جعلت رحمة الله تصيب كل شيء، ولكنك أنت بفعل ما، باختيارك أنت، بقرار من عندك كأنك تقول أنا لا أحتاج هذه الرحمة، وهناك أشياء أخرى أفضل أريد أن أفعلها ولن أتركها من أجل رحمة ربي..!

نحن لا نقول هذا الكلام ولا نطيق أن نقوله، لكن أفعالنا تقوله من غير أن نتكلم!

هل تعلم ماذا قال النبي عليه الصلاة والسلام في الخمر؟ والخمر من الكبائر، ويدخل فيه كل ما يذهب العقل من حشيش أو مخدرات أو غيرها من الذي يستسهله الناس ويرون أنه نوع من المجاراة للناس والمجتمع، يقول النبي عليه الصلاة والسلام في كبيرة الخمر: «لَعَنَ اللَّهُ الْخَمْرَ، وَشَارِبَهَا، وَسَاقِيَهَا، وَبَائِعَهَا، وَمُبْتَاعَهَا، وَعَاصِرَهَا، وَمُعْتَصِرَهَا، وَحَامِلَهَا، وَالْمَحْمُولَةَ إِلَيْهِ» [أخرجه أبو داود، وقال الألباني: صحيح]

بمعنى أنها منذ كانت في المصنع قبل التصنيع فكل من سار في خط التصنيع هذا وهو يعلم أنه يقوم على صناعة الخمر، فمن أصغر عامل إلى آخر شخص قدّم الكأس أو الشراب إلى هذا الإنسان، فكل هذه السلسلة ملعونة و مطرودة من رحمة الله، أي مبعدين تمامًا عن رحمة الله.

وهذا شيء مهم ودرس للحياة في بعض الكبائر، فلا تنظر للأخير وتظن أنه وحده الشارب الآثم، إنما انظر إلى السلسلة التي أوصلت له الشراب كلها مطرودة من رحمة الله، كل من يسر له الشراب وليس هو فقط، فكل السلسلة من أول من عصر الخمر، ومن صنّعها ومن وصّلها ومن حملها ومن ساعد في إدخالها كل هذه السلسلة مطرودة من رحمة الله عز وجل. ومن يطيق أن يكون مبتعدًا عن الله عز وجل ولا يكون في دائرة رحمة الله؟.

وكيف تفعل إذا جاءك أي نوع من أنواع الكرب، أو لحظة حزن، أو لحظة أغلقت عليك الأبواب، وتعرف أن البشر ليس لديهم حل، وكيف تكون الحياة من غير أن تقول يا رب، من غير أن تقول يا رب ارحمني أنا لا أستطيع أن أتحمل، كيف تكون الحياة لو ما عرفنا هذه الكلمات (يا رب أنت تراني، أنت تسمعني، يا رب أنت تسمع أنيني، وتسمع ما في قلبي وتعلم ألمي)؟

ممن استحقّ اللعن والإبعاد عن رحمة الله كذلك ما قاله النبي عليه الصلاة والسلام في حديث آخر :«لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ، وَالمُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ» [أخرجه البخاري، صحيح]

مِن الرجال مَن يبيع رجولته ليستأنث، في مشيته وكلامه وحركاته وفي خُلُقه أيضًا، هذا الاستئناث الذي ابتلي فيه ذكور في هذا الزمن حتى أصبحوا مشاهير يتابعهم الآلاف، اعلم أنهم مطرودون من رحمة الله، وكذلك الجانب الآخر "البويات" البنات اللاتي قررن أن يكن كالرجال! هذا القرار الذي اتخذته فيه طرد من رحمة الله عز وجل، حينما يقول صلى الله عليه وسلم «"لَعَنَ اللَّهُ الوَاشِمَاتِ وَالمُسْتَوْشِمَاتِ، وَالمُتَنَمِّصَاتِ، وَالمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ، المُغَيِّرَاتِ خَلْقَ اللَّهِ تَعَالَى" مَالِي لاَ أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ فِي كِتَابِ اللَّهِ: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ} [الحشر: ٧] » [أخرجه البخاري، صحيح]

والمتفلجات اللاتي كُنّ يفرِّقن أسنانهن، قديمًا كلما فرقت السن كان ذلك يعد جمالا، وهذا قديمًا قبل أن تظهر عمليات التجميل، فمجرد هذه الحركة البسيطة والتي تعد من تغيير خلق الله عز وجل رتب عليها الطرد والإبعاد عن رحمة الله!

وكذلك من ترسم وشمًا في يد أو كتف أو ساق! حتى وصل بنا الحال أن نرى بنات فى الكلية وشموا الصليب وترى أن شكله جميل بدون أن تأبه أنه رمز لمعتقد! وهذا والله المصيبة ومن تمام التقليد! مع أن هذا الحديث من أول من حفظناه في المدارس "لَعَنَ اللَّهُ الوَاشِمَاتِ وَالمُسْتَوْشِمَاتِ، وَالمُتَنَمِّصَاتِ، وَالمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ"[أخرجه البخاري، صحيح]

كل هذا نحن عرفناه وتعلمناه، فكيف صار اختيار الابتعاد عن الله والطرد من رحمته سهلًا لهذه الدرجة؟ من الذي أعطانا معايير الجمال الزائفة الذين لو رأوا فتاة على خلقتها لقالوا أنها غير متحضرة؟ وصار مقياس الجمال هو ما تقرره أهواءهم! مع أن الحلال متاح وهناك ألف طريقة تتبع فيها الجمال بالحلال، لكن الإنسان بيده وقراره يختار أن يبتعد عن الله..

ولذلك قال الله عزوجل ( ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب ) يعني من يخالف أمر الله ورسوله، وصار هو وهواه في ناحية والله سبحانه وشرعه في ناحية فإن الله يتوعده بالعقاب الشديد! وهذا يكون باختيار وقرار من الإنسان أن يكون بعيدًا في شقّ آخر عن الوحي السماوي والشريعة والأوامر.. والله سبحانه شديد الانتقام!

ولذلك لو كنا نحب الله عزوجل ما طقنا البعد عنه، وما استطعنا الحياة في بعده، ولذلك حينما نحب أشخاصًا لا نطيق البعد عنهم، ولو غبنا عنهم يومًا أو يومين أو أسبوعًا لأكثرنا سؤالهم واستفقادهم، وشعرنا أن الحياة قلقة بدون رؤية من نحب..

وقد كان هذا حال الصحابة رضوان الله عنهم كانوا يحبون النبي عليه الصلاة والسلام حبًا جمًا، فكان أحدهم يكون في بيتهم ومع زوجه وأولاده، فيشحب وجهه ويصفرّ، حتى يبدو كأنه مريض، حتى يذهب إلى النبي عليه الصلاة والسلام فيرى وجهه فإذا رأى وجهه ارتاح وذهبت حرقة شوقه لحبيبه صلى الله عليه وسلم.

نحن نحب رسول الله عليه الصلاة والسلام ونحن ما رأيناه وتطير قلوبنا إليه ونحن ما رأيناه فكيف بالناس الذين عاشوا معه ورأوا من مكارمه وأخلاقه ومن وجهه الأنور ما لم تطق قلوبهم أن يطيلوا الجلوس مع أهليهم وزوجاتهم دون رؤية وجه الحبيب،

عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَاللَّهِ إِنَّكَ لَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، وَإِنَّكَ لَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَهْلِي، وَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ وَلَدِي، وَإِنِّي لَأَكُونُ فِي الْبَيْتِ، فَأَذْكُرُكَ فَمَا أَصْبِرُ حَتَّى آتِيَكَ، فَأَنْظُرُ إِلَيْكَ، وَإِذَا ذَكَرْتُ مَوْتِي ومَوْتَكَ عَرَفْتُ أَنَّكَ إِذَا دَخَلْتَ الْجَنَّةَ رُفِعْتَ مَعَ النَّبِيِّينَ، وَإِنِّي إِذَا دَخَلْتُ الْجَنَّةَ خَشِيتُ أَنْ لَا أَرَاكَ. فَلَمْ يردّ عَلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى نَزَلَ جِبْرِيلُ بِهَذِهِ الْآيَةِ: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ} [النساء: ٦٩] » الْآيَةَ" [أخرجه الطبراني في الأوسط]،

يعني ستكون أنت في مكان آخر في الجنة، أكيد أنك ستكون مع الأنبياء ولن نكون معك، وقد كانت هذه الفكرة قد أشغلته أيامًا حتى أرهقته، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم يطمّن أصحابه فعَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»[أخرجه البخاري، صحيح]، وقال له في حديث آخر: عن رَبِيعَةُ بْنُ كَعْبٍ الْأَسْلَمِيُّ، قَالَ: كُنْتُ أَبِيتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ فَقَالَ لِي: «سَلْ» فَقُلْتُ: أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ. قَالَ: «أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ» قُلْتُ: هُوَ ذَاكَ. قَالَ: «فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ»[أخرجه مسلم، صحيح].

فالحب هو ما يجعل المرء ولو وُلد في آخر الزمان وكان بين زمنه وزمن بعثة النبي آلاف سنين هو ما يجعله يحشر في زمرته لأن المرء مع من أحب، فمن أحب النبي صدقًا سيسعد في الآخرة صدقًا، ولذا كيف تكون الحياة بدون حب بينك وبين الله عزوجل؟ كيف الحياة وأنت تفعلين ذنبًا تعلمين أنه يطرد من رحمة الله؟

هذا الذنب دأب الشيطان أن يزينه لك ويجمّله في عينيك، ويجعلك تعتقدين أن الحياة بدونه ناقصة، ولا يمكن أن تتعايشين بدونه، وأن سعادتك تكمن بفعله - كما فعل مع آدم عندما وسوس له أن يأكل من الشجرة - حتى إذا أوقعك فيه، جرّك لمعصية بعدها أخرى، فالثالثة فالرابعة، وجزاء السيئة السيئة بعدها..

أما الناس الذين يحبون الله سبحانه، ومع حبهم هم يهابونه ويخافونه، **فما هي الأشياء التي تخيفهم؟**

**١ -هم يخافون من الإعراض، أن يعرض الله جل جلاله عنهم..**

في الحديث القدسي: " يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ، وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً" [أخرجه الترمذي، وقال الألباني: صحيح]

هذا الحديث دائمًا يأتي في باب رحمة الله عز وجل، وأنك مهما فرطت ولهوت وابتعدت عن الله ولو عشرات السنين، ثم تاقت نفسك للتوبة ولو في آخر ساعة من الحياة وهذا يكون بتوفيق الله لك جراء عمل صالح أو خبيئة بينك وبين الله، فاستغفرت وأنبت ودعوت الله أن يغفر لك كل الضياع في عمرك، فالله يغفر ويتقبل ويتوب سبحانه.

وتأمل بداية الحديث "لو بلغت ذنوبك عنان السماء" تعرف ماذا يعني؟ يعني أذنبت وأذنب وأذنبت فتراكمت حتى غطت الأرض، وأذنبت فتراكمت حتى بلغت الغلاف الجوي حتى السماء، وحتى لو جئت بقراب الأرض يعني بملء أكياسها ذنوبًا وخطايا ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي! عظيمة هي رحمة الله!

**ولو فكرت ما الذي يجعل الإنسان يجمع كل هذه الذنوب؟ كيف استطاع أنه يذنب كل تلك الذنوب؟**

ما الفعل الذي يجعل ذنوبنا تصل لعنان السماء؟ ما هو الذي زُيّن لنا؟ يجيبنا على هذا السؤال ابن القيم -رحمه الله- حين أقسم فقال: "تالله ما عدا عليك العدو[الشيطان] إلا بعد أن تولى عنك الولي"

ما معنى هذا الكلام؟ يعني أن الشيطان وهو عدونا ما هجم علينا إلا بعد أن تولى عنّا الوليّ وهو الله سبحانه وتعالى، فلما تولى الله عزوجل عنك هجم عليك العدو، فيقول ابن القيم-رحمه الله-: "فلا تظن الشيطان غلب ولكن الحافظ أعرض."

فليس لأن الشيطان غلبك فالله تركك، إنما الحافظ أعرض، وتأمل نحن كنا وما زلنا نعيش في حفظ الله وستر الله، فهذه الفتن تعرض علينا يمنة ويسرة، فحتى لو أغلقت باب غرفتك عليك، ستجد أن الفتن تدخل عليك من الجوال من مقطع أو صورة أو رسالة، فمن هو الذي يبصرك ومن الذي يحفظ قلبك من أن يُزيّن له الدخول في الفتنة إلا الله عز وجل؟ ومن الذي ثبّت قدمك من الولوج في المعاصي إلا الله؟ لكن قد يفعل الإنسان أحيانًا أمورًا يجعل ربه يتولى عنه ويتركه، وحينها إذا تولى الحافظ عنك بما كسبت يدك تصبح لقمة سهلة سائغة للشيطان يأتي ليفترسك من كل جانب، لأنه ليس هناك ملائكة تحميك، والله معرض عنك سبحانه.

<u>فهذا الذي يخاف منه المحبّون، يخافون من أن يُعرض الله عنهم.</u>

الحسن البصري وهو من كبار التابعين كان يبكي أحيانًا وهو من العبّاد والزهّاد، فيقولون له أنت تبكي؟ قال: "نعم، لعلّ الله اطلع عليّ في بعض ذنوبي فقال اعمل في غير مُعتمل"، يعني قد يكون الله اطّلع عليّ في موقف أذنبت فيه وهذا الذنب المفترض مثلي ما يُذنبه!

وكم حصل هذا أن تكون أذنبت ذنبًا فيه جرأة وتعدّي واستهزاء، ثم فعلته بقلب جامد، وما اكتفيت بإسراره بل جاهرت به وصورته على الهواء مباشرة، بلا مشاعر خوف من الله ولم تلقِ بالًا، فالله جلّ جلاله اطلع عليك وأنت بابتسامتك العريضة في أثناء مواقعتك الذنب، فيُعرض الله عنك..

قد فزتِ بمتعة لحظية، ولكن؟ قد أعرض الله عنك!

لذلك قال الحسن البصري ذلك، فقد كان يخاف من ذنوب اعتبرها من المحقرات أو ذنوب لم يتب منها، وهذا دأب المحبين يخافون من الإعراض عنهم.

**٢ - ثاني الأمور التي تخيفهم أن ينزل الحجاب بينهم وبين الله.**

يعني أن يصير القلب محجوبًا عن الله، والحجاب هو هذه الوحشة التي تكلمنا عنها في البداية أن ما تشعر أن في قلبك حنين إلى الله، فمشاعر الحب تجاه الله جافّة، ولذلك نسمع من يقول: ما أحس أني في مرة احتجت إلى الله كل شيء ميسر ومسهل حولي فقد يكون هذا سبب شعوري!

وهذا الكلام الذي أقوله كلام حقيقي من ناس قالته، ناس كنت أتناقش معهم فيقولون أنا ما أعرف إذا أنا أحب الله حُب حقيقي أو لا! ما أتذكر أن هناك قرار مصيري آثرت الله أو حبه على حب الدنيا أو حب هواي!

قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ شِبْتَ، قَالَ: «شَيَّبَتْنِي هُودٌ، وَالوَاقِعَةُ، وَالمُرْسَلَاتُ، وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ، وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ»[أخرجه الترمذي، وقال الألباني: صحيح] ماذا كان يقصد؟

قرأ المفسرون سورة هود ليعرفوا الآية التي شيبت رسول الله، وجاء في روايات أخرى أن الآية التي شيبت النبي عليه الصلاة والسلام قول الله عزوجل (فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ۚ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) [سورة هود ١١٢]

فقالوا لأن الاستقامة أمرها ثقيل، فالنبي عليه الصلاة والسلام مأمور بها لنفسه ومأمورة أمته من بعده أن يأخذوا الحلال حلالا، والحرام حراما، فقيل هذه الآية هي التي شيبت النبي عليه الصلاة والسلام .

وجاءت في روايات أخرى أن التي شيبت النبي عليه الصلاة والسلام هي ذكرى الأمم السالفة "شَيَّبَتْنِى هودٌ وأَخَواتُها، وما فُعِلَ بالأممِ قَبْلِى"[أخرجه ابن عساكر في تاريخه، وقال الألباني: ضعيف]. و سورة هود فيها ذكر الأنبياء وعاد وثمود وكل أمة من الأمم وعقوبتها.

واحدة من هذه العقوبات جاءت في مدين وثمود، قال الله عزوجل فيهم: {ألا بُعدًا لثمود} وقال الله عزوجل لمدين: {ألا بُعدًا لمدين كما بعدت ثمود} ففي بعض الروايات أن هذه المَهلَكة وهذا الطرد لتلك الأمم هي التي شيبت النبي عليه الصلاة والسلام.

هذا الكلام مُتّسق مع سلفنا الصالح حينما يقولون : إننا نخاف الخواتيم، وما الخواتيم؟ هي ما يُختم لي ولك في حياتنا.

نحن نعلم أن من شب على شيءٍ شاب عليه، ومن عاش على شيءٍ مات عليه، لذلك قفي هنا قليلًا واعملي مراجعة لحياتك وتذكري ما هو أكثر شيء قريب من حياتك؟ ماهو الشيء الذي يستهلك أكثر يومك؟

مر علينا في درس الجزاء من جنس العمل أنا كنّا نقول أنه من تمام العدل أن الشيء الذي أكثرت منه طوال حياتك أنه سيكون عليه ختامك، لذلك كان السلف يخافون من لحظة الخواتيم.

الصالحون أكثروا من الصلاح، والمذنبون الخطائون أكثروا من الذنوب والخطايا، ونحن نقول عن أنفسنا أننا لسنا من أهل الصلاح ولسنا من أهل الذنوب، نحن في منطقة ما بين هذا وهذا، ومقتنعين بنمط الحياة النصفي هذا، لكن اسألي نفسك الخاتمة على أي نصف ستكون؟ أيهم كان أكثر؟ وأيهم تحبّين أن يُختم لك فيه؟

فالذي شيب النبي عليه الصلاة والسلام في هذه الرواية هي خوف الخواتيم، ثمود ومدين كانت أقوام فأبعدهم الله عزوجل بعد العز الذي كانوا فيه.

لذلك يمر عليك في بعض الأحيان أُناس كانوا صالحين أو كانوا حفظة قرآن أو كانوا أناس رقيقة قلوبهم، فإذا فجأة يتغيرون فيمن تغير، وفجأة تجدينهم على ناصية الإلحاد؛ يشكون بوجود الخالق وإذا هو موجود أو لا.

ما الذي أوصلهم إلى هذا الشيء؟ هذه الانتقالة من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار!

هذه هي الخواتيم التي كان يُخاف منها فأنت ما تدري كيف يختم لك عملك.

لذلك يقول النبي عليه الصلاة والسلام: « ...، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُ النَّارَ»[أخرجه البخاري، صحيح]

الناس كلها تتكلم عنه الصالح الصوام القوام وحتى ما يبقى بينه وبين الجنة ذراع يعني مسافة قريبة ويموت، فتصير الخاتمة له أنه يعمل بعمل أهل النار.

وللحظة ستعتقدين أنه لا يوجد مؤمن يعيش بأمان! فإذا كان هذا الشخص ذا صلاة وصيام وقيام صار به كذا، فكيف يأمن الإنسان نفسه، سأقول لك: لا، لا شيء يأتي من فراغ، واسمعي حديث النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الجَنَّةِ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ»[أخرجه البخاري، صحيح]

فهو أمام الناس كان هو الصائم والقائم والمصلي، فعباداته رياء ومجاملة للناس ليكون بينهم من أهل الصلاح!

هذا الحجاب الذي نتكلم عنه هو أن يكون هناك بعد ووحشة بين العبد وربه، يمر عليه اليومان والثلاثة والأسابيع وربما الأشهر وهو ما رفع يديه بالدعاء لربه، يقول ما عندي أحد مريض وما عندي أحد مات، والحمد لله في نعمة وعافية فما احتجت أن أدعو الله.. وهذا الفهم المغلوط أننا لا نحتاج الله إلاّ بالمصائب.

وحين لم تنزل بك مصيبة هل شكرت الله على ذلك وحمدته؟

هذا هو الأمر الثاني الذي يخاف منه المحبّون أن ينزل الحجاب بينهم وبين الله عز وجل لذلك قال الله في سورة المطففين: { كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون} فكما حُجبوا عنه في الدنيا حجبوا عن الله عز وجل في الآخرة لأن قلوبهم أصلًا ما تاقت إلى الله عز وجل ولا إلى رؤيته.

لذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام: " ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ" [أخرجه البخاري، صحيح]

فحب الله عزوجل ملأ كيانه، بل فوق ذلك يكره أن يعود في الكفر ويعود للفسق والذنوب، يكره أن يتذكرها، يعتقد أنه كان فاقدًا لعقله حين كان يفعلها، ويتأمل بواسع حلم الله عليه لما كان يراه يعمل تلك المعاصي بضحك وانبساط وجرأة!

فهذا الإحساس الذي يكون عندك أنك تكرهين أن تتذكري ماضيك السيء هو من حلاوة الإيمان التي أطعمك الله إياها، تكرهين العودة إلى ما كنت عليه كما تكرهين أن تقذفين في النار.

فالقلب حين يذوق حلاوة الإيمان يُصبح حساس جدًا، وتصبح النظرة تجرحه، والكلمة تجرحه أيضًا، وأي سماع حتى لثواني أو لدقائق تجرحه أيضًا.

أما الذين قست قلوبهم واسودّت لو يرون إنسانًا عريانًا يقولون هذا ما يؤثر فينا وهذا أمر عادي! لا ليس عاديًا، كيف تعودت عينك؟!!

فالقلب لمّا يكون حساسًا ويذوق حلاوة الإيمان ما تمر عليه مناظر العُري والعورات بشكل طبيعي! فالنظرة الواحدة تجرحه، والكلمة التي قالها بقصد أو بدون قصد فتندم عليها تجرحه.. ولا يوجد إنسان ملاك، وكلنا نتعرض لمثل هذه اللحظات التي يفلت فيها لسانك، أو تفلت فيها عينك، لذلك ميزة القلب الذي ذاق حلاوة الإيمان أنه لا يرضى أن يعيش متلطخًا بذنبه، فإذا أحسّ أنه فعل ما يجرح إيمانه بسرعة أقفل الباب على نفسه وقعد يستغفر ويصلي ويتصدق ويتوب إلى أن يرمم هذا الجرح.

كنت أتكلم مع مجموعة من البنات وكانوا يتكلمون عن السناب والانستقرام وغيرها من البرامج، وأن هناك قدر كبير من الصور والمقاطع الفاضحة جدًا تظهر لك حتى من حسابات لا تتابع، تظهر في الاكسبلور وغيره، وأن فيها من القذارة الشيء الكثير المؤلم، فحتى لو ما تعمدتِ رؤيتها ولكن العين تلتقط هذه المشاهد، ويأتي دور الشيطان ليعظمها في مخيلتك ويذكرك فيها حتى يدخلك في دوامات أخرى.. ومع هذه الفتن يأتي دورك أن تجعل قلبك محافظًا على حلاوة الإيمان فيه تخاف أن تلثمك النظرات والكلمات، في الحديث القدسي يقول الله عز وجل: "«أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي، إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ، ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ، ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ هُمْ خَيْرٌ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا، تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا، تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً» [أخرجه مسلم، صحيح]

ومن هذا الحديث نأخذ ثالث الأمور التي يخافها القلب المحبّ:

**٣- فالقلب المحب لله يخاف أن يتوقف يخاف أن يصل لمرحلة في الحياة ليس لديه شبر يقدمه لله،**

ولك أن تحاسب نفسك، منذ متى وأنت على نفس المستوى ما تقدمتِ ولا زدت شيء؟ وصلت لمستوى أفضل منذ عدة أعوام، ومنذ ذلك الحين أمدّ الله بعمرك بالصحة والعافية واستجاب الله عز وجل دعائك، وأعطاك أشياء كنت تتمنينها وحفظ لك نفسك ومن تحبّين، فماذا زدتِ أنت وقدمتِ بينك وبين الله؟ الله عز وجل يقول «... وَإِنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا، تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا، تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً» [أخرجه مسلم، صحيح]

ومعناها كما يقول السلف: إن لم تكن في علو فأنت في نزول، لو ما كانت علاقتك مع الله عز وجل تتقدم ومنسوب العبادة والإيمان يزداد فراجع نفسك،

ليس على الإنسان أن يكون في ثبات فقط، وهو مطلب مهم، ولكن من موجبات الثبات أنك لا تتركين نفسك على ماهي عليها، بل لابد من الزيادة والعمل، ولذلك فالصالحون في كل مجتمع كلّما رأوا الناس انفتحت عليهم أبواب الشر و استغرقوا فيها، زادوا هم في العمل الصالح حتى يكتبهم الله من الصالحين وحتى يكتبك الله من المصلحين، فأنت صاحبة الخيار تنزلقين مع هؤلاء الذين انزلقوا أو تحافظين على أن يكون عندك رصيد من الصالحات بينك وبين الله عز وجل، ولذلك الإيمان إن لم يكن في زيادة فهو في نقصان.

سُئل سفيان الثوري هل الإيمان يزيد وينقص؟ قال: نعم يزيد حتى لا يعلوه شيء وينقص حتى لا يبقى منه ذرة. فهو يزيد وينقص فيزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي،

ولذلك هذا ما يخاف منه المحبّون لله الصالحون وهي النقطة الرابعة

**٤- أنك إذا لم تكن في علو فأنت في نزول وإن لم يكن إيمانك في زيادة فجزمًا هو في نقصان،**

ولهذا ليجعل لكل واحد منا مقياسًا خاصًا لنفسه، وراقبي عباداتك فلو كنت تصومين الاثنين والخميس لماذا لا تزيدين صيام ثلاثة أيام من كل شهر، وإذا كنت تصلين الضحى ركعتين ما يمنعك أن تكون أربع؟ تصلين القيام ركعة؟ ماذا لو صليتها ثلاثة أو خمسة؟ كنتِ تقومين بقصار السور الإخلاص والناس؟ لو زدت وصارت مائة آية لتكتبي من القانتين أو ألف آية فتكتبي من المقنطرين، كل ما تسمعين حولك من الأحاديث والكلمات في التزود من الصالحات هل التزمتها وطبقت شيئًا منها؟ وقيسي على ذلك الحرام، فما كنت تفعلينه قبل عام هل تركته الآن؟

**نختصر هذه الأربعة قلب المحب يخاف من:**

- أن يعرض الله عز وجل عنه.
- يخاف أن يكون ثمة وحشة وحجاب بينه وبين الله عز وجل.
- يخاف ألا يقدّم لله أكثر ويتقرب إليه أكثر.
- يخاف على مستواه الإيماني ألا يتحرك، فإن لم تكن في زيادة فأنت في نقصان وإن لم تكن في علو فأنت في نزول.

قال النبي عليه الصلاة والسلام: «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ» [أخرجه مسلم، صحيح]

يغان على قلبي أي تصيبه مثل الضيقة، وهذا الذي يتكلم هو النبي عليه الصلاة والسلام وهو أحب الخلق إلى الله وهو الذي حياته كلها عملٌ ودعوة لله عز وجل واستقبال وفود وجهاد هؤلاء ودعوة هؤلاء ومع ذلك يقول إنه ليغان على قلبي، أي أنه تأتيه مثل الضيقة، كأن على قلبه تراكمات قد تكون أتت من مخالطة الناس، وعدم وجود وقت متسع أكثر للخلوة بينه وبين الله عز وجل يعني يريد مزيدًا من العمل الصالح.

كان أحدهم يشبه هذا الإحساس عند النبي عليه الصلاة والسلام فيقول لو أن بينك وبين الله مائة خطوة، وكلما مشيت واقتربت كلما نزلت عليك من الرحمات ومن الفتوحات ومن لذيذ الإيمان ما لم تعشه من قبل، فإذا تقدمت أكثر ووصلت لنصف الخطوات شعرت وتساءلت كيف كانت حياتي من قبل؟ كيف كان هوى نفسي مسيطر علي؟ والتوافه تملأ وقتي؟ وكلما تقدمت أكثر واقتربت شعرت بالحسرة على ما فات والتألم على ما ضُيّع من العمر، وهكذا النبي عليه الصلاة والسلام والذي يعلم حقيقة القرب من الله عز وجل يتألم على كل لحظة لا يستزيد فيها من الخير أضعافًا مضاعفة، فمع أنه في استقبال الوفود وملاقاة الناس لكن ملاقاة الناس أيضا تغان على قلب النبي عليه الصلاة والسلام فيستغفر الله مائة مرة ويذكر الله مائة مرة إلى أن ينجلي ما في قلبه.

قال ابن الجوزي-رحمه الله-: هناك عقوبات معنوية لا يشعرها الإنسان.

عيوننا دائما تتجه للعقوبات المادية فقط، إنسان مرض نقول الله أصابه بدعوة فلان، امرأة تعرضت لحادث سيارة نقول يمكن حصل كذا عقوبة لها، رجل فقد ماله نقول قد تكون عقوبة له، فأعيننا ترى الماديات فقط وننسى أن هناك عقوبات معنوية قد يبتلى بها الكثيرون من غير أن يشعروا.

يذكر ابن الجوزي-رحمه الله-: أن: بعض أحبار بني إسرائيل قال: يا رب كم أعصيك ولا تعاقبني؟ فقال له الله: كم أعاقبك وأنت لا تدري؛ أليس قد حرمتك حلاوة مناجاتي؟

فهو يعيش في حياته سعيد لكنه حُرم القرب من الله ولذة مناجاته، هو لا يعرف ذلك الحبل المربوط بينه وبين الله بالدعاء، ولا يريد أن يتذكره أصلًا لئلا يتذكر ربه الذي فرط في حقه كثيرًا، وهو مستمر بالأخذ من متاع الدنيا واللهو فيها، لا يحب أن يتذكر أن وراءه حساب أو يوم قيامة..

نقول له عِش واستمتع، ولكن لا تنتهك حرامًا ولا تفعل شيئًا
يترتب عليه الطرد واللعن من رحمة الله، والحياة فيها متّسع كثير، ومن ترك الحرام فهو يعيش حياته في طمأنينة وسلام، فلا تظن أن الحياة محصورة في هذا الحرام الذي تفعله.

فالعقوبة هي الحرمان ولا تدرك معناها! ألست حرمتك لذيذ مناجاتي؟ فلذة المُناجاة هي لذّة القرب من الله عز وجل، وهي رأس القرب من الله عز وجل، فحينما قال تعالى: (فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ (٨٩)} سورة الواقعة: ٨٨، ٨٩

أما الجنة فمعروفة، وأما الروح فهي تمام الراحة وراحة البال، فكلما كان الإنسان من المقربين من الله عز وجل كلما أعطاه الله عز وجل راحة البال وطمأنينة الحال وصار
هذا الإنسان في سكينة وفي سلام وفي طمأنينة، هذه الأمور التي يبحث عنها الناس حاليًا السكينة والراحة والسلام وتقدم في دورات بآلاف الريالات، وقد تكون هذه الدورات فيها شركيات،
والله عز وجل يعطيك إياها في آيتين فقط! (فأما إن كان من المقربين * فروح وريحان وجنة نعيم)

روح من اسمها من الراحة وفيها من راحة البال والحال، والريحان: هو النبات المعروف بعطره وزينته، فكل نعيم حسي يستشعره الإنسان يدخل في هذه الآية فشملت الاثنين شملت الروح، وشملت راحة البال والحال والسلام والسكينة
وطمأنينة الحال، وشملت أيضًا كل اللذائذ المعنوية في الريحان فأي شيء أنت تشمه أو تستمتع فيه بحواسك تدخل فيه (وجنة نعيم) وفوق هذا كله النعيم المعنوي والنعيم المادي:
النعيم الأخروي في جنة النعيم، هذا إن كان مِن مَن؟ إن كان من المقربين.

**ودعونا نختم بجواب لهذا السؤال:**

**كيف أنال لذّة القرب؟**

بداية حديثنا تكلمنا عن الناس المبعدين، والناس الذين طردوا من رحمة الله، وتكلمنا أن من العقوبات أن يحرمك الله لذة المناجاة، ولذة المناجاة هي أجمل ما في الدين فكيف نصل إليها؟ وهذا ليس بالصعب، فالشريعة لم تأتِ بحلول معقدة ولا طلاسم، الطريق فيها سهل وواضح، وإذا فتحت القرآن وجدته أمامك، فإذا بدأت تقرئين الآيات طالبة للهدى (من قرأ القرآن طالبًا للهُدى هداه الله)
فتجدين الآيات تدلك على الطريق أمامك، طيب من الذي سينال الجائزة؟ جائزة القرب ولذة القرب؟ الذي ينالها هو أول واحدة فينا ستبدأ المسارعة إلى الله عز وجل، يقول الله عز وجل:

(وسارعواإلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدّت للمتقين) وقال الله عز و جل: (فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ) البقرة:١٤٨

والقضية هنا ليس أن تفعل الخيرات فقط، بل أن تُسابق إليها، تسابق مَن؟ تسابق الناس، وتتنافس مع الناس في نيل رضى الله وقربه، قال الله تعالى : (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ)

(أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ)

(فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ)

( ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ )

(وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ)

سورة الواقعة آية ١٠ - ١٤

فلا نكن من الناس الذين يمشون على هونهم في الدنيا، بل إذا كان الأمر مرتبط بالطاعات ونيل رضوان الله فاستعجل، فطريق الخير يحبه الله ويحب من يأتيه منيبًا مسرعًا،

"لله أفرح بتوبة العبد من أحدكم كان بفلاة ..." إلى آخر الحديث، فالله يفرح بتوبة العبد، وإذا كنت تعرفين أن هذا القرار صحيح لكنه مؤجّل وتعرفين أن هذا القرار هو ما يجب عليك فعله، لكنك إلى الآن ما أُعطيت القوة عليه، سلي الله أن يعطيك القوة وأغمضي عينك وافعلي هذا الخير، ولا تؤجليه بل الآن قرريه ولا تنتظري أن تخرجي حتى من الباب..

فأسرع الناس إلى لذة القرب **هم أولئك الذين يُسارعون إلى الله عز وجل**، ولذلك قال الله عز وجل عنهم:

(والسابقون السابقون) (أولئك المقربون) (في جنات النعيم) (ثلة من الأولين) (وقليل من الأخرين)

الآيات هذه فيها مدح وفيها ذم، فالمدح الذي فيها: أن ثلّة من الأولين يعني أكثر الناس المقربين هم من الزمن السابق ومع ذلك فيها بشارة أن من الآخرين وهم قليل مقربين!

أسأل الله أن يجعلني وإياكم من هذا القليل، فهناك أجيال ستأتي من بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم متأخرة ولكنهم داخلون في المقربين، هؤلاء نهجوا حياتهم على المسابقة والمسارعة في القرب من الله، وهؤلاء هم من مشوا في الدنيا على نور من الله فأضاء لهم الله في القيامة من نوره..

والقسم الثاني من الناس الذين سيفوزون بلذة القرب:

**هم أولئك الذين يدخلون مع الله في مناجاة في هزيع الليل وفي جوف الليل**، يقول النبي عليه الصلاة والسلام: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِنَ العَبْدِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ الآخِرِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَذْكُرُ اللَّهَ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ فَكُنْ» [أخرجه الترمذي، صحيح]

أقرب وقت يكون الرب فيه قريب من العبد هو في جوف الليل الآخر ،

فإن استطعت أن تكوني ممن يذكر الله في تلك الساعة فكوني، فقسّمي الليل من غروب الشمس إلى الفجر، مثلًا من الساعة الخامسة المغرب إلى الرابعة والنصف فجرًا قسميها إلى النصف، ثم احسبي نصف النصف يعني [الربع] فهذا الثلث الأخير هو جوف الليل الآخر، وهذا الوقت هو وقت نزول الرب جل جلاله للسماء الدنيا، فيقول: هل من مستغفرٍ فأغفر له؟ هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من داعٍ فأستجيب له؟!

كم مرت علينا ليالي جلسنا فيها للساعة الثالثة فجرًا في الثلث الأخير ونحن مستيقظون وما أعرنا اهتمامًا لهذا الوقت؟ وكم منا تكون نائمة هذا الوقت ولكن تكون حريصة على الاستيقاظ قبل الفجر بساعة أو نصف ساعة

ليكون لها نصيب من هذا الوقت المبارك، لتصلي بركعات وتدعو بدعوات، ودعوات هذا الوقت مجابة، يقول سبحانه: هَلْ مِنْ سَائِلٍ يُعْطَى؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ يُسْتَجَابَ لَهُ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ يُغْفَرَ لَهُ؟ حَتَّى يَنْفَجِرَ الصُّبْحُ" [أخرجه مسلم، صحيح]

فأنتِ لما ترفعين يدك وتقولين يارب أنت تنزل في هذه الساعة وأنت الذي تسمع حوائج عبادك لتعطيهم، وتنتظر دعواتهم لتجيبهم، وتوبتهم لتغفر لهم، فكوني على يقين بأن هذه الدعوات ستستجاب لك.. وإذا لم تكن لك حاجات في الدنيا؟ سلي الله حاجات الآخرة، سلي الله حسن الخاتمة، وحسن البعث، والمنزل الطيب الحسن الرفيع في الجنة، وسليه الرضا والتوفيق والبركة كل هذه الأشياء لا تُؤتى إلا من عند الله عز وجل.

هذا الحديث الأول بيّن لنا الزمن الفاضل الذي يكون العبد فيه قريبًا من ربه، وهناك حديث آخر يبيّن لنا حالة فاضلة يكون العبد فيها أيضًا قريبًا من ربه ومولاه.. في صحيح مسلم قال النبي عليه الصلاة والسلام: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ، وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ» [أخرجه مسلم، صحيح] إذًا كل ما كنتِ في السجود كل ما كنتِ أقرب إلى الله عز وجل.

وفي حديث أيضًا النبي عليه الصلاة والسلام يقول: «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَامَ فِي صَلَاتِهِ فَإِنَّهُ يُنَاجِي رَبَّهُ، ..." [أخرجه البخاري، صحيح]

إذًا كل ما كنتِ أنتِ في الصلاة فأنتِ في مُناجاة مع الله عز وجل ولذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام «ثَلَاثَةٌ يُحِبُّهُمُ اللَّهُ، وَثَلَاثَةٌ يُبْغِضُهُمُ اللَّهُ، فَأَمَّا الَّذِينَ يُحِبُّهُمُ اللَّهُ، فَرَجُلٌ أَتَى قَوْمًا فَسَأَلَهُمْ بِاللَّهِ وَلَمْ يَسْأَلْهُمْ بِقَرَابَةٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ فَمَنَعُوهُ، فَتَخَلَّفَ رَجُلٌ بِأَعْيَانِهِمْ فَأَعْطَاهُ سِرًّا لَا يَعْلَمُ بِعَطِيَّتِهِ إِلَّا اللَّهُ، وَالَّذِي أَعْطَاهُ، وَقَوْمٌ سَارُوا لَيْلَتَهُمْ حَتَّى إِذَا كَانَ النَّوْمُ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِمَّا يُعْدَلُ بِهِ نَزَلُوا فَوَضَعُوا رُءُوسَهُمْ، فَقَامَ أَحَدُهُمْ يَتَمَلَّقُنِي وَيَتْلُو آيَاتِي، وَرَجُلٌ كَانَ فِي سَرِيَّةٍ فَلَقِيَ العَدُوَّ فَهُزِمُوا وَأَقْبَلَ بِصَدْرِهِ حَتَّى يُقْتَلَ أَوْ يُفْتَحَ لَهُ، وَالثَّلَاثَةُ الَّذِينَ يُبْغِضُهُمُ اللَّهُ، الشَّيْخُ الزَّانِي، وَالفَقِيرُ المُخْتَالُ، وَالغَنِيُّ الظَّلُومُ» [أخرجه الترمذي، وقال الألباني: ضعيف]

وتأملي العامل المشترك بين هؤلاء الثلاثة، فالأول: "...، فَأَمَّا الَّذِينَ يُحِبُّهُمُ اللَّهُ، فَرَجُلٌ أَتَى قَوْمًا فَسَأَلَهُمْ بِاللَّهِ وَلَمْ يَسْأَلْهُمْ بِقَرَابَةٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ فَمَنَعُوهُ،..." [أخرجه الترمذي، وقال الألباني: ضعيف]

يعني شخص دخل على ناس يسألهم وليس بينه وبينهم قرابة، فمنعوه وطردوه، فأتاه واحد منهم سرًا ولحقه فأعطاه ما سأل، بدون أن يعلم بقية القوم بأن منهم واحدًا قد تصدّق على الرجل وجبر خاطره، فهذا الأول [أعطاه سرًا لا يعلم بعطيته إلا الله]

والثاني: [وَقَوْمٌ سَارُوا لَيْلَتَهُمْ حَتَّى إِذَا كَانَ النَّوْمُ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِمَّا يُعْدَلُ بِهِ نَزَلُوا فَوَضَعُوا رُءُوسَهُمْ، فَقَامَ أَحَدُهُمْ يَتَمَلَّقُنِي وَيَتْلُو آيَاتِي] فهذا لما نام الناس كلهم وكان النوم أحب إليهم من كل شيء، قام يدعو ربه ويثني عليه ويتقرب منه ويتلو آياته..

والثالث: [وَرَجُلٌ كَانَ فِي سَرِيَّةٍ فَلَقِيَ العَدُوَّ فَهُزِمُوا وَأَقْبَلَ بِصَدْرِهِ حَتَّى يُقْتَلَ أَوْ يُفْتَحَ لَهُ] لما هزم الناس في سرية وهربوا، قاتل هو لوحده بنفسه حتى يُقتل أو يفتح له.

ما السر بين هؤلاء الثلاثة؟ هؤلاء ما مشوا مع التيار المنهزم ولا التيار البخيل ولا التيار الكسول، بل كان حبهم لله فائقًا كل مصالح ومحاب الدنيا، يحبون المال؟ نعم لكن حبهم لله أكثر، يحبون النوم؟ يحبون الحياة؟ لكن حبهم لله أكبر..

لذلك فالذين يفوزون بلذة المُناجاة هم أولئك الذين يُسارعون في الخيرات، والذين يتقربون من ربهم في هزيع الليل.

ودعونا نأخذ مثالًا من القرآن لأحد أنبياء الله:

موسى عليه السلام، عبر الله عز وجل عن حبه لموسى بثلاث كلمات رئيسية، قال الله عزوجل: (وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني)

وهذا التعبير بألقيت مختلف عن قوله أنزلت عليك، أو أحببتك، بل ألقيت عليك فكأن المحبة لباس يلبسه إياه،

وفي آية أخرى قال الله عزوجل: (واصطنعتك لنفسي) أي أني اتخذتك لأمر النبوة والرسالة وستكون فيها لله وبالله،

وإذا قرأت قصة موسى ومررت على الآيات التي نادى فيها الله موسى قال له: (وعجلت إليك ربي لترضى) فالله عزوجل يخبرنا عن هذا الموعد الذي كان بينه وبين نبيه موسى عليه السلام: (وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيًا)

ولما تجمعين هذه الآيات كلها مع بعضها ستجدين أن موسى عليه السلام قام بفعل المسابقة، وعجّل خطواته، فلم يذهب مشيًا متراخيًا، ولم ينتظر قومه، مع أن هذا الميعاد كان سيأتي إليه كل بني إسرائيل، ولكن من شوقه إلى ربه ما انتظرهم، وذهب مسرعًا لربه،

ولذلك حينما سأله ربه في الطور الأيمن عن قومه وهو سبحانه أعلم بهم، قاله له موسى: (قال هم أولاء على أثري وعجلت إليك ربي لترضى) فمع أن موسى كليم الله عز وجل إلا أنه يتعجل لقاء الله عز وجل حبًا فيه وشوقًا إليه، وكانت هذه ثمرة المسابقة إليه، أن أعطاه الله عز وجل لذة المناجاة المباشرة، حتى أن موسى لما سمع صوت الله عزوجل وكلام الله عزوجل قال يا ربّ أرني أنظر إليك، وهذا من شوقه إليه، فأجابه ربّه: إنك لن تراني ولكن انظر إلى الجبل حولك إن استطاع أن يثبت فسوف تراني، فلما تجلّى الله للجبل صار الجبل دكًا، لذا فالطاقة البشرية لا تستطيع تحمل رؤية الله في الدنيا، ولكن رؤيته من نعيم الآخرة نسأل الله أن يرزقنا هذا النعيم..

وننتقل الآن للقطة أخرى مع النبي صلى الله عليه وسلم، في يوم القيامة في المحشر الذي استغرق خمسين ألف سنة، والناس خلالها وقوفٌ على أقدامهم والشمس فوقهم، منهم من ألجمه العرق ومنهم من كان تحت ظل عرش الله تعالى، والناس مكثوا على هذا الحال لا طعام ولا شراب ولا نوم،

ويصف النبي عليه الصلاة والسلام هذه اللحظة فيقول في معنى حديثه: ولولا أن الله كتب عليهم أن يموتوا لماتوا، ولكن الله كتب عليهم الموتة الأولى،

في هذه اللحظات الناس تنتظر أن يبدأ القضاء والحساب، فيبدؤون باستشفاع الأنبياء ليستشفعوا لهم عند الله ليطلبوه أن يبدأ الحساب لأنهم قد ضجروا وتعبوا، يطلب هذه الشفاعة الخلائق كلهم حتى الكفار!

فيذهبون للأنبياء وهذا الحديث معروف وهو حديث طويل وفيه أنهم يذهبون إلى آدم فيقول لا، فيذهبون إلى موسى، ثم إلى نوح، ثم إلى إبراهيم، وكل واحد منهم يعد شيئًا من خطاياه،

وكل نبي يكون قوله اللهم سلم سلم لأن الله تعالى قد غضب اليوم غضبًا لم يغضبه قط، ويدلهم على نبي آخر يرى أنه أفضل منه،

إلى أن يذهبوا إلى محمد صلى الله عليه وسلم ويتشفعون به ويقولون يا محمد أنت رسول الله وأنت أحب الخلق إلى الله وأنت خاتم الأنبياء فاذهب اشفع لنا عند ربك (فيقول النبي عليه الصلاة والسلام: أنا لها) (فيقول النبي عليه الصلاة والسلام فأذهب فأستأذن على ربي) يستأذن لأن الآن يوم القيامة، وهذا هو الفصل الأخير من حياة البشرية،

في اللحظة الأخيرة يغضب الله جل جلاله لأن هذا اليوم سيقصم فيه الجبابرة والمتكبرين والطواغيت والظلمة، هذا اليوم سيقتص فيه من أهل الشر، من كل من اتّبع الباطل، هذا اليوم يوم الاقتصاص ويوم الانتقام، في هذا اليوم يأتي النبي عليه الصلاة والسلام فيشفع عند الله، فيدخل محمد صلى الله عليه وسلم فيستأذن على ربه، فيأذن الله له، يقول: (فيؤذن لي فأقوم بين يديه فأحمد بمحامد لا أقدر عليها الآن يلهمنيها الله) يعني يحمد الله عزوجل بمحامد لا يستطيع الآن أن يقولها لأنها ستأتي في ذلك الموقف وفي ذلك المكان فقط، فيلهمه الله عزوجل إياها ويوفقه إليها ثم يخر له ساجدًا إلى أن يشاء الله عزوجل،

ثم يقول له الله عزوجل: (يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تُعطه واشفع تشفع) فيرفع رأسه النبي عليه الصلاة والسلام فيقول: يا ربّ أمتي أمتي، فيكون أول ما يسأل النبي عليه الصلاة والسلام يا رب أمتي أمتي، لم يسأل أصحابه فقط أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، بل حتى أنا وأنت وكل الأجيال من أمته التي ستأتي، وهو الذي قال لنا: (إني فرطكم على الحوض) يعني يواعد الصحابة ومن يأتي بعده من أمته، أني سابقكم إلى الحوض فإذا انتهيتم من الصراط فعلى يمين الصراط هناك الحوض وهناك نهر الكوثر "وَإِنِّي فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ، وَأُكَاثِرُ بِكُمْ الْأُمَمَ، فَلَا تُسَوِّدُوا وَجْهِي، ..." [أخرجه ابن ماجه، وقال الألباني: صحيح]

وهذا ما يطلبه منا الرسول عليه الصلاة والسلام: "فلا تسوّدوا وجهي" وفي هذا المشهد يعرف النبي عليه الصلاة والسلام أمته من علامات الوضوء والطهارة، فيناديهم ليرِدوا على الحوض، عرفهم من هذا البياض في مواضع السجود الذي هو من علاماتهم، فيعرف النبي أمته وهو لم يرهم وليس بينه وبينهم حسب أو نسب، ،

فتأتي الملائكة تردّهم وتخطفهم، فيقول النبي هؤلاء من أمتي أعرفهم! فتقول الملائكة إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، أنت لا تدري ما الذي فعلوه من الآثام والذنوب التي تجعلهم الآن يخسرون هذه الشربة الشريفة، فيقول النبي: (سحقًا سحقًا).

من شفاعات النبي عليه الصلاة والسلام أيضًا في ذلك الموقف هو شفاعته للموحدين من الذين دخلوا النار، فيشفع النبي -بعد أن يحمد ربه ويثني عليه بما يفتح عليه- لمن في قلبه مثقال ذرة من إيمان، ثم يستشفع النبي ربه فيدعوه ويحمد ويثني عليه فيأذن له بأن يخرج من النار من في قلبه أدنى أدنى من مثقال ذرة من إيمان..

وهذا هو دأب النبي عليه الصلاة والسلام مع ربه أن يناجيه بالمحامد والمثاني أولًا ليقدّم طلبه ثانيًا، وهكذا أنت إذا أردت شيئًا من الدنيا من منصب أو جاه أو وظيفة، لا ترفعي يدك مباشرة وتبدئين بالطلب يارب ارزقني، يارب اشفي والدتي، يارب أعطني، بل تعلمي أدب المناجاة،

خذي وقتًا في البداية بالحمد والثناء على ربك، ولا تظني أنك لا تعرفين أن تصيغي عبارات الحمد، فلو قلت يا رب أنا الصغير الذي كبرته فلك الحمد، وأنا الجاهل الذي علمته فلك الحمد، وأنا الضّال الذي هديته فلك الحمد، يارب كم من نعمة أنعمت علي بها قلّ لها عندك شكري، وكم بلية ابتليت بها فقل عندها صبري، فلم تحرمني ولم تعاقبني فلك الحمد..

ثم ناجي الله بأشياء أنعم عليك بها تخصّك قد لا يعرفها غيرك من صحة وعافية، وليكن قلبك مملوء بالحب والامتنان له سبحانه تجاه المعروف الذي أسداه لك.. ثمّ إن لذيذ المناجاة هذا قد يغنيك عن الطلب والمسألة فيكفيك من لذة ما تجدين من حمده وثنائه عن الدعاء بغيره، وتخيلي الكريم حينما تقولين له أنت أكرم الأكرمين، وأنت أرحم الراحمين، وأنت أغنى الأغنياء، وأنت أحسن من أعطى، فتخيلي كيف تكون عطيته لك؟ حتى لو ما سألت حوائجك التي كنت تريدينها من الدنيا، فإن الله يعطيك شيئًا أكثر من الذي تمنّيتيه، أو يفتح لك باب هو أفضل وأجمل في عينك مما تأملتِ..

ختامًا: إن لذة المناجاة يفوز بها من عرف كيف يناجي الله، ومن دخل عليه من باب الثناء، وسارع إلى الله بالخيرات فإنه حتمًا سيجد من الله عزوجل الخير كله.

أسأل الله أن يعطينا ولا يحرمنا وأن ينفعنا بما علمنا ويعلمنا ما ينفعنا وأن يجعل خير أعمالنا خواتيمها وخير أيامنا يوم أن نلقاه، والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

تنويه: مادة المحاضرة جمعت من مصادر عدة وجميع المحاضرات في المدونة ليست كتابة حرفية لما ورد في المحاضرة؛ إنما تمت إعادة صياغتها لتُناسب القرّاء وبما لا يُخلُّ بروح المحاضرة ومعانيها.